عن النقد الجيني وآفاق التعامل مع المخطوطات والمسوّدات الأدبية بالعالم العربي

حبيبة العلوي

مركز البحث العلميّ
والتّقنيّ لتطوير اللّغة العربيّة

إنّ تأويل العمل الإبداعي على ضوء وثائقه التحضيريّة، يحمل منذ حوالي الثلاثين عامًا اسم : "جينيّة النّصوص" أو "النقد الجيني" أو "الجينيّة" (la Génétique) هذا الفرع العلمي الحديث الذي ما زالت أغلب القواميس تفتقر إلى تحديد له، حتّى أنّها مازالت لا تقابل مصطلح (Génétique) إلاّ بمفهومه البيولوجي المستمدّ من علم الوراثة في حين أنّ واقع الثمانينيّات قد أدخل عليه مفهومًا جديدا تماما وأدبيّا محضًا: «دراسة تكوين (Genèse) النصوص من خلال دراسة مخطوطاتها»، ومازال هذا الاستعمال الجديد للمصطلح محصورًا في فئة المختصّين في الأدب، بالرغم من أنّه قد دخل إلى لغات عديدة، على استحياء.

ولقد استُشعرت فكرة إعادة اكتشاف المسوّدات من قبل عدد من البنويّين الشباب الذين استهوتهم فكرة الاتصّال المباشر والواقعي والمادة الأدبيّة : الاطلاع على المادّة الكاملة والحيّة للكتابة في حال ولادتها،

تطوّرها، ارتباكاتها، فتوحاتها... إنّها مغامرة ثقافيّة حقيقيّة، تقتفي أثر العمليّة الإبداعية في كامل تحوّلاتها.

ويعد بذلك هذا العلم الناشىء من بين المناهج التجديديّة القليلة التي أحدثتها الثلاثين سنة الأخيرة في مادة المناهج النقديّة.

وينطلق النقد الجيني من حقيقة جدّ بسيطة تتمثّل في أنّ العمل المنشور هو ثمرة جهود مضنية من التحضيرات المعقّدة ومن عمليّات التحويل المكثّفة، هو ثمرة زمن من البحث عن الوثائق وأخذ النقاط ووضع المخطّطات وإعادة وضع لها، إلخ. لقد اقتنع هذا النقد بأنّ لكلّ نصّ تكوينه الخاص، هذه الحقيقة التي ما تزال مغيّبة حتّى عند قسم من الجمهور المثقّف الذي ما يزال يختلف في ردّ أصل الإلهام إلى مصدر غيبي أو إلى تدفّق تلقائي ... والواقع يقول بأنّنا ما زلنا نقرأ النصوص وكأنّها مكتوبة على خطّ يد دونما انقطاع، بالرغم من أنّ ملفّاتها الجينيّة تقول بعكس ذلك، هذه الأخيرة التي تعدّ الرصيد الأساس الذي يزوّد الجيني بمادّة وموضوع تحقيقه وهي من هذا الباب لا تقدّر بثمن.

علينا أن نعرف أيضا أنّ التحليل الجيني ليس بالتحليل المعياري: فكما أنّه يهتم بـ "الأدب الرفيع" لا يغفل عن المؤلّفات المتواضعة... مبدؤه الأساس هو منح رعاية أكبر لعمل الكاتب، حركاته، مشاعره، تردّده، ما يقترحه فعلا هو إعادة اكتشاف المؤلَّف (بفتح اللام)؛ من خلال تلاحق المحاولات والتحريرات التي تمخّض عنها، لتسوقه إلى شكله النهائي.

غايته القصوى إدراك حالة من الفهم الجيدّ للمؤلَّف: معرفة تكوينه من الدّاخل، النوايا الخفيّة للكاتب، الطريقة التي يبدع فيها، العناصر التي كتبت بعناية وصبر لتنتهي إلى حتفها، العناصر التي يُبقي عليها ويطوّرها، الاطلاع على لحظات انحباسه وانقباضه، زلاّت قلمه، رجوعاته إلى الوراء،

التكهّن بمنهجيّة وطريقة عمله، معرفة إذا كان يعتمد على مخطّطات أو أنه يشرع مباشرة في التحرير، العثور على أثر دقيق للوثائق والكتب التي استعملها، إلخ. إنّ جينيّة النصوص تحملنا إلى اختراق المخبر السريّ للكاتب، للفضاء الحميمي لكتابة تتستّر وتحتجب... إن لهذا النقد شيء يضارع مغامرات الباحثين عن الكنز: إنه بحث عن مؤشرات ماديّة، تحقيق حقيقي في قلب الكتابة، مشروعه الحق هو العثور والإمساك على الصيغة التي يواصل بها النصّ المطبوع الحياة بصفة عجائبيّة، مستندا ومتوكّلا دائما على الكتابة التي خلقته...

وعدا النتائج الأوليّة التي يتوصّل إليها هذا النقد فيما يخصّ هذا الكاتب أو ذاك، يمكنه أيضا أن يتوصّل إلى الإجابة عن سؤال ما الكتابة ؟ وهو يجيب عن سؤال : كيف نكتب ؟

ما يسعى إليه هذا المقال هو محاولة التقديم لهذا التوجّه النقدي الجديد الذي لا نجد له الأثر المطلوب في الحقل النقدي العربي، هذا الأخير الذي يعوز إلى إحاطة وافية بأدبيّات النقد الجيني واختراق حقيقيّ لعوالمه واكتساب محكم لآليّاته، والتنبيه والتحضير قبلا لثقافة الاحتفاظ والعناية بالمخطوطات والأوتوجرافات (المخطوطات النهائيّة الموقّعة من قبل الكتّاب) والمسوّدات الأدبيّة وعدم إعدامها بمجرّد خروج النص إلى عالم الطباعة والنشر.

كتب غيستاف فلوبير ذات 15 أفريل من سنة 1852 للويز كولي (Luise Colet) يقول :

> «عندما أفرغ من كتابة روايتي في خلال عام، سأجلب لك مخطوطي الكامل، وبقليل من الفضول ستكتشفين مدى تعقّد الآليّة التي توصلني إلى صناعة جملة» ... !

لم يكن فلوبير على علم بأنّ علما كاملا سيقوم على دراسة مخطوطاته تلك أو مخطوطات غيره من الكتّاب ممن استشعروا ضرورة الاحتفاظ بدفاتر مسوّداتهم ومخطوطاتهم..

إنّها "الجينيّة" [1](la Génétique) ... هذا التوجّه النقدي الجديد الذي أضحى يعدّ من «أنشط فروع الدراسات الأدبيّة الحاليّة، [إذ] يشتغل على خطّين فهو من جهة يلحق بالعمل الفيلولوجي المؤسّس للنصوص (من حيث المطبوعات النقديّة للمؤلّفات) ومن جهة مخالفة يعمل على دراسة ديناميّة الخلق النصّي في ذاتها»[2]

وصرنا نسمع اليوم بعمليّات طبع ونشر لنصوص لم تكن تعدّ في السّابق إلا ورقا عتيقًا لا تجد له أثرًا إلاّ في مخازن المكتبات أو في صناديق المصنّفين (les collectionneurs). كما حصل لدفاتر غيستاف فلوبير أو للمسوّده الأولى للبحث عن الزمن الضائع لبروست "صبيحة عند أميرة غيرمونت" (Matinée chez la princesse de Guermantes) وغيرها من النصوص التي استفادت من هذا التوجّه الجديد الذي تبنّته أكبر دور النشر مما سمح للقرّاء بالاطّلاع -في مطبوعات جيب بسيطة- على ملفّات جينيّة تحتوي محاولات ومخطوطات والنقاط الأولى التي وضعها كاتب ما في أثناء عملية خلقه للنصّ. وكانت هذه الوتيرة محفّزًا كبيرا للاندفاع في تيّار هذا التوجّه النقدي الجديد الذي استفاد من الثورات النظريّة التي شهدها القرن العشرين وخاصّة تلك التي حاولت تخليص العلوم الإنسانية من التعليلات الأسطوريّة والغرائبيّة؛ حيث ينظر للظاهرة الإنسانيّة على أنّها ظاهرة طبيعيّة غير قابلة للتفسير والإجلاء والظاهرة الأدبيّة فرع منها. وهكذا استطاعت النظريّة الأدبيّة أن تستفيد من العلوم الأخرى كعلم الاجتماع واللسانيّات والانتروبولوجيا... حيث اقترحت تأويلات جديدة للعمل الإبداعي وطرق جديدة لتفكيك آليّاته وبنياته الجماليّة والنفسيّة واللسانيّة ...

فكان أن ظهرت البنويّة مثلا في الستيّنيّات وإن كانت هذه الأخيرة على الرغم من منجزاتها الكبيرة لم تهتم في النهاية إلاّ بالنصّ المطبوع المنشور و أهملت الأصل الحقيقي للعمل تاركة إيّاه قابعا في دائرة الغرائبيّة والضبابيّة وهذا ما يحاول النقد الجيني اليوم استدراكه.

1. عن تاريخ النقد الجيني ...

لم يكن الاهتمام بالمخطوطات أمرًا طارئًا إلى هذا الحدّ ... غير أنّها نظرة النقد الجيني الجديدة هي التي أسندت إليها المخطوطات ـ وضعًا اعتباريّا جديدا ... وهي التي ميّزت هذا النقد عن كثير من الدراسات التي كانت تجد في المخطوطات مادّة لبحثها ...

1.1. بين الجيني والمصنّف ...

لا بدّ من التمييز أوّلا بين الجينيّة التقليديّة التي كان يتبنّاها المصنّفون ومنذ زمن طويل ويمارسونها على مخطوطاتهم التي يعود اهتمامهم بها عادة إلى فضول جمالي أو إلى ذوق تقديسي للشيء أو إلى مجرّد شهيّة استحواذ ماديّة.

وعادة ما يحتفظ هذا المصنّف بالمخطوطات ويرفض إظهارها للجمهور أو للمشتغلين عليها، أمّا هو فلن يهتم في النهاية إلا بالمرحلة النهائيّة من عمليّة الخلق الفنّي.

أمّا الناقد الجيني فيتعامل معها بطريقة مغايرة تماما فهو لا يهتم بالاحتفاظ بالمخطوط بقدر ما يهتم باستغلاله علميّا. وهو من زاوية أخرى يهتم بالمخطوطات الأولى المشتغل عليها (المشطّبة، المعبّأة (surchargées)...).

وبوثائق كدفاتر المسوّدات عوضًا عن المخطوطات الجاهزة المبيّضة. غير أنّ الناقد الجيني يبقى متعلّقا بالمصنّف الذي يمتلك ذلك المخطوط أو ذاك ومعتمدًا بشكل أساسي على ذخيرته أو على ذخيرة المكتبات الكبيرة التي استفادت هي الأخرى من عمل أو من هواية المصنّف.

2.1- بين الجيني والفيلولوجي...

لا بدّ لنا أيضا أن نميّز بين الفيلولوجي والجيني ...

والفيلولوجيا كما نعرف علم عتيق تعود نشأته إلى ما قبل ظهور الكتاب في شكله الذي نعرف.

وقد بدأ هذا الاهتمام منذ القرن الثالث الميلادي الذي شهد انتشارًا للنصوص الإنجيليّة بمحاولة الحدّ من أخطاء النقلة فشرع في مقارنة المخطوطات المختلفة والمتوفّرة لأجل الوصول إلى الحقيقة الأصليّة عن طريق اكتشاف الرسائل المغلوطة، الكلمات المنسيّة أو المعادة...إلخ ولم تتوقّف هذه الدراسات إلاّ حين اختراع الطباعة ليولّى الاهتمام لنشر النصّ الأقرب إلى الحقيقة والأبعد عن المزايدة والغلط.

لتتحوّل الفيلولوجيا بعد هذا التاريخ إلى علم يدرس مجمل النّصوص الأدبيّة (لا العتيقة منها فقط).

وكان علينا أن ننتظر حتّى القرن 19 لنشهد أوّل جدل منهجي من نوعه يدور حول مسوّدات عمل أدبي، تعلّق ذلك بحادثة احتجاج فيكتور كونسان (Victor Consin) على الطبعات التي صدرت لمؤلّف باسكال «خواطر» (Pensées) بعد وفاته إذ اتهمها بمغالطة ومجانبة آراء مؤلّفها الأصليّة وأظهر كونسان الاختلافات الكبيرة بين هذه الطبعات والمخطوط الأصلي لباسكال. ودعا إلى تطبيق المناهج المطبّقة على النصوص العتيقة على نصّ

باسكال وهذا ما حقّقه هو بنفسه حيث عمل على وصف دقيق لمسوّدات باسكال وكلّ ما تحويه من خربشات... تشطيبات... اختصارات... وتوصّل بذلك إلى وصف للمراحل المختلفة التي سلكها باسكال في أثناء تأليفه لخواطره.

أمّا عن فيلولوجيا القرن التاسع عشر فقد كانت عبارة عن منهج طباعة علمي للنصوص بعيد عن أي اهتمام تنظيري للعمليّة الإبداعيّة ذاتها.

وبالموازاة وهذا التوجّه التقني انفتحت الفيلولوجيا على أبعاد أخرى استندت إليها في محاولة للبحث عن النصّ الأصلي (غير القابل للطعن) كالعودة مثلا إلى مصادر إلهام الكاتب..! إلى السياقات التاريخيّة والثقافيّة للعمليّة الإبداعيّة...إلى آليّات تركيبه وإشكالاته الأسلوبيّة.

كما فعل غيستاف ريدلير (Gustave Rudler) في مؤلّفه "تقنيات النقد والتاريخ الأدبي" (1923) وعدّ بذلك من أوائل من أقدموا على نقد التكوين (Critique de la genèse) الذي يجب أن يرتكز حول «العمل الذهني الذي ينبثق من خلاله المؤلّف الإبداعي» (حسب غيستاف دائما) وبنفس الطريقة يكتب (A-Abalat) كتابًا بعنوان : "العمل الأسلوبي الملقّن من طرف التنقيحات المخطوطيّة لكبار الكتّاب" «Le travail du style enseigné par les corrections manuscrites des grands écrivains» (1903).

يمكن أيضا أن نذكر كتاب (Harald Weinrich) : (1906) «كيف كان إميل زولا يؤلّف رواياته ؟»

غير أنّ مجموع هذه الأعمال بقيت محصورة في درس المخطوطات النهائيّة (أي الأقلّ تعقيدًا) أو بعض المحاولات الأولى (esquisse)، دون اعتماد عمل حقيقي على المدوّنة الكاملة.

تميّزت هذه الجهود الفيلولوجيّة بطابعها الأسلوبي المحض الذي يبتعد بشكل كبير عن العمليّات الأساسيّة المشكّلة للعمل الفنّي.

ويبقى هذا الشغف التأصيلي الفيلولوجي محاصرًا ومقهورًا بسلطة النصّ المطبوع.

3.1. التحوّل الجذري

عرف تطوّر النقد الجيني تاريخًا متناقضًا فهو لم يكن امتدادًا طبيعيًا للفيلولوجيا وإنّما إعادة بناء جذريّة للإشكالات التي طرحتها عمليّة خلق النصوص وتأويلها وهذا ما يبرّر ويفسّر التسمية الجديدة له التي لم تسجّل كل القواميس بعد مفهومها الجديد، ويكمن التناقض أيضا في كون النقد الجيني الحديث هو وريث للقطائع النظريّة الهائلة التي شهدتها الستينيّات في مجال تحليل الأعمال الأدبيّة... والتي دعت إلى دراسة النصّ في ذاته بعيدًا عن التفسيرات البيوغرافيّة أو التاريخيّة ممّا يجعل هذا الاتّجاه أبعد ما يكون عن الاهتمام بظواهر الخلق الماقبل نصيّة أي التي تتقدّم النصّ (كمعطى نهائي) الذي يعّد عند آل هذا الاتجاه نظامًا مغلقًا لا يجب أن يراعى منه غير منطق تشكّله الداخلي.

غير أنّ الحاصل أنّ النقد الجيني استفاد كثيرًا من الجهود المنهجيّة والتنظيريّة البنويّة (بالرغم من اختلاف مقصديّة كلّ اتجاه) وعرف سريعًا كيف يُعمل آليّات البنويّة التي طبّقت أصلاً على النّصوص النهائيّة المثبّطة، على العمليّات التي تولّدت عنها هذه النّصوص.

حيث ابتدأ النقد الجيني من حيث انتهت إليه البنويّة (ومن المفترض أن يحصل العكس !) فبعد أن استوعب النصّ كظاهرة شكليّة جاءت الجينيّة لتهتمّ بعمليّة بنينة (structuralisation) البنية وإجلائها، بدل الاهتمام بوصف وإجلاء البنية في ذاتها.

وعلى هذا النحو تطوّر النقد الجيني وأصبح متوائمًا جدّا و المناهج التحليليّة الأكثر حداثة ويمكننا اليوم وببساطة أن نجري دراسة جينيّة تستند إلى تصوّر نفسي، لساني، سردي، اجتماعيّ نقدي، سيميائي...

وعلى هذا تكون جينيّة النصوص قد قطعت شوطًا كبيرا وأعلنت قطيعة نهائيّة والفيلولوجيا التي بقيت إلى عهد قريب العلم الوحيد الذي يهتمّ بدراسة المخطوطات ويحتكرها.

4.1. إسهامات الكتّاب

تباينت آراء الكتّاب وإسهاماتهم في تطوّر هذا التوجّه النقدي الجديد... من معارض مفنّد إلى متحمّس مقتنع.

هذا الكاتب الرومنسي شاتوبريون (Chateaubriand) مثلا يستهجن تماما فكرة طباعة مسوّدات كتاباته بعد وفاته، الفكرة نفسها يتبنّاها غيستاف فلوبير بطريقة آليّة وتلقائيّة دفعته إلى الاحتفاظ بالملفّات الكاملة لأعماله (الجينيّة طبعا) من دفاتر نقاط إلى مبيّضات... مرورًا بسلسلة المحاولات التي أعاد كتابتها عشرات المرّات.

هذا الفعل لم يكن مجرّد نزوة كاتب و إنّما كان ناتجًا عن قناعة فلوبير الداخليّة بأنّ لعمليّة بناء النصّ قيمة وأهميّة نص العمل النهائي نفسها.

ها هو يكتب للويز كولي :

«ياليت مسوّداتي تعيش أكثر منّي هذا كلّ ما أتمنّاه» !

وبين شاتوبريون وفلوبير يمكننا أن نذكر فيكتور هيغو الذي أوصى في الـ 31 من أوت 1881 بكلّ مسوّداته للمكتبة الوطنيّة التي كانت ذخيرتها المخطوطاتيّة قبل هذا التاريخ شبه منعدمة. وسنعود للحديث عن فضل هييغو في هذا الباب لاحقا.

نجد الاهتمام نفسه مثلا لدى الكاتب الأمريكي ادجار آلان بو الذي أقدم بنفسه على تحليل قصيدته (the Raven) "الغراب" في نصّ عنونه بـ: فلسفة التكوين (The philosophy of composition) .

ولدى شاعرٍ كبول فاليري الذي خصّص صفحات من «كراريس للتحليل الذاتي» (Cahiers à l'auto-analyse) للحديث عن طريقة أو عمليّة ولادة مؤلّفاته (gestation)، أوندري جيد أيضا كتب وبالموازاة ورواية (les Faux-Monnayeurs) مذكّرات هذه الرواية (Journal des Faux Monnayeurs) التي وصف فيها عمليّة تكوين روايته.

ويعدّ كتاب الشاعر فرونسي بونجي (Français Pongé) "البناء عن قرب" (fabriqué du près) مثالا حيّا عن هذا الانشغال حيث لم يهتم فيه فرنسيس بعمليّة التكوين في بعدها الذهني فقط وإنّما في بعدها الذهني الأكثر ماديّة أيضا (النقاط، المسوّدات، التشطيبات...) ولم يعدّ هذا الشاعر كتابه هذا هامشيّا أو ثانويّا و إنّما اعتبره كتابًا مكتملاً.

وهكذا بدأنا نشهد في هذه السنوات الأخيرة عمليّات نشر واسعة لدفاتر كاتب كإميل زولا (دفاتر التحقيق مطبوعة من طرف هنري ميتيران (Henri Mitterand)) أو فلوبير (من طرف P. M. de Biasi) ولمسوّدات كتاب ما زالوا على قيد الحياة كالشاعر أوندري دي بوشي (André du Bouchet) ... وهذا ما دفع أهمّ مراكز البحث في جينيّة النّصوص كمعهد النّصوص والمخطوطات "Institut des texts et des manuscrits" (ITEM) مثلا أن يتفرّغ للعناية بالرّصيد المخطوطي للشاعر الألماني هين هونري (Henri Heine) وبهبة لويس أراغون التي منحها في حياته لمركز (CNRS).

1.4.1. قسم المخطوطات الحديثة؛ ميلاد المؤسّسة ... ونبوءة هيغو

منذ بدايات القرن التاسع عشر كما أسلفنا، وفي الوقت الذي شرعت فيه الفيلولوجيا في توجيه رعايتها للمخطوطات القروسطيّة، وبدأ الكتاب المطبوع والصحافة يجدان طريقهما بدور النشر الجماهريّة، بدأنا نلحظ في أغلب البلدان الغربيّة، كفرنسا وألمانيا ملامح فضول متزايد حول المخطوطات الموقّعة لكبار المؤلّفين المعاصرين. فظهرت موجة من "المصنّفين" الجدد، كلوفيكتوم دو لوفينجول (le victome de lovenjoul)، مختّص ومولوع بأوتوجرافات بالزاك، أخد هذا المصنّف في جمع مراصد لأرشيفات أدبّية خاصّة، من الأحياء من الكتّاب أو من ذويهم، حتّى قبل أن يظهر مبدأ الاحتفاظ العمومي بهذه الوثائق والمؤسّسات المكلّفة بحفظها. من جهتهم، لم يكتف الكتّاب بحفظ أوراقهم فقط أو الإبقاء عليها، بل عملوا على حفظها وحمايتها، وتصنيفها وتوريثها والتوصية بها وفق استراتيجيّة توحي بنيّة إهداء الأجيال القادمة موضوعا للولع والبحث، القرن التاسع عشر كان مسرحا إذن للتأسيس للمخطوط الحديث : وقد تم إحداث هذا الموضوع الثقافي وتحوّله إلى إرث في ألمانيا، بفضل الولع الجماعي لكل من غوث وشيلير (Goethe et Schiller)، وفي فرنسا بفضل إسهام وحثّ عملاق من عمالقة الأدب إنه فيكتور هيغو.

يعدّ "فيكتور هيغو" حالة مثاليّة لاعتناء الكتّاب بمخطوطاتهم الأصليّة، وأزّهم للسلطات الغافلة آنذاك عن هكذا مشروع لضرورة إقامة مؤسّسات معنيّة بحفظ مسوّدات ومخطوطات الكتّاب، فقد سهر منذ سنة 1826-1828، على حفظ أوراقه ومسوّداته، وعدم تقديم غير نسخة غير موقّعة من نصّه النّهائي للناشرين، محتفظا بذلك بالمخطوط الأصلي والموقّع، فقد حرص على حفظ كنزه هذا فى "خزانة حديديّة" (!!!)، محزّما إياه بعناية، وفي

مراحل حياته العامّة الأكثر حرجا (انقلاب سنة 1851، وعودته إلى فرنسا سنة 1870، وأزمة 1877، إلخ)، أقرّ بأنه كان يحرص على أوراقه تلك أكثر من شخصه وجسده، ولدى عودته من المنفى، باح هيغو لأحدهم بأنه كان يحتفظ بمسوّداته في حقيبة عازلة للماء، حماية لأوراقه الثمينة من خطر المطر أو الغرق، لقد تحوّلت هذه المخطوطات وباختصار إلى ظلّ وتوأم حقيقي لهيغو، ورمزٍ لفكره الحي، ولإبداعه. وهو يكتب وصيّته سنة 1881 ، لم يغفل هيغو أن ينصّ على ما يلي :

«أهب كلّ مخطوطاتي، وكلّ ما يمكن أن يعثر عليه مكتوبا أو مرسوما من قبلي، للمكتبة الوطنيّة بباريس، التي ستصبح يوما ما مكتبة الولايات المتحدّة الأوروبيّة» !!!

لقد كان هيغو شخصيّة سياسيّة وثقافيّة من الطراز الأوّل، ولم يكن في وسع مطامحه إلاّ أن تفرض نفسها، فبعيد الفراغ من مراسم الجنازة سنة 1885، لم يكن في وسع السلطات غضّ الطرف عن رغبة هيغو في حفظ مخطوطاته، فما كان عليها إلاّ المسارعة في إقامة قسم لحفظ المخطوطات الحديثة والمعاصرة، إلى جانب قسم المخطوطات العتيقة الذي كان تحويه أصلا المكتبة الوطنيّة بباريس، لتكون سابقة هيغو التي لامثيل لها، صاحبة الفضل في إنشاء قسم المخطوطات الحديثة بالمكتبة الوطنيّة بباريس، أين يحفظ اليوم تراث ضخم من المخطوطات الأدبيّة.

وانطلاقا من هذا التاريخ، وعلى أثر هيغو، راح الكتّاب، وعوائلهم، وذوي حقوقهم، يمنحون رعاية خاصّة لحفظ رصيد مخطوطاتهم بمختلف مؤسّسات حفظ التراث، وبهذه الطريقة ولد "المخطوط الحديث"، الذي سيتحوّل إلى مادة أوّلية يعنى بها فرع نقدي كامل هو "النقد الجيني»...[3]

2.4.1. المكتبة الوطنيّة لفرنسا "موقع ريشوليو" (Richelieu) : قسما المخطوطات الشرقيّة والغربيّة...

لقد قمت باستغلال تواجدي بالعاصمة باريس يومي 27 و 29 ديسمبر 2007 ...[4]، في زيارة المكتبة الوطنيّة لفرنسا "موقع ريشوليو" (Richelieu): قسمي المخطوطات الشرقيّة والغربيّة، أما زيارتي لقسم المخطوطات الشرقيّة فقد سمحت لي بالاطّلاع على مقتنيات هذه المؤسّسة ورصيدها الهائل من المخطوطات العربيّة النادرة على وجه الخصوص. عدا ما تحتويه من مخطوطات فارسيّة وصينيّة وعبريّة...إلخ.، إذ تحتوي هذه المكتبة على ما يقلّ عن 7214 مخطوطة عربيّة، اقتني نصفها من المكتبات والنّصف الآخر من المؤسّسات، كمثل الجمعيّة الآسيويّة سنة 1981، أو منحت كهبة من بعض الخوّاص كمخطوطات جورج كولان (1893-1977) وهو مختص في اللسانيّات المحليّة في المغرب وفي الأندلس، وكذلك رصيد هنري كوربين (1907-1978) زيادة عن هذه المخطوطات، يحوي القسم مخطوطات تتصّل بالشمال الغربي ببلاد الهند تعرّفنا بمظاهر من التراث الشعبي مع نصوص قديمة موروثة عن علاقات المشرق بالمغرب العربي الإسلامي...[5]

طبعا عليّ أن أشير وأنبّه هنا أنه ليس ثمّة مخطوطات عربيّة حديثة أو معاصرة بهذا القسم، لانعدام الاهتمام العربي بهذا الفن، سواء على مستوى الكتّاب أو الهيئات إلا حالات نادرة جدّا.

وأمّا زيارتي لقسم المخطوطات الغربيّة فتدخل في صلب اهتمامي الجيني، فقد حاولت التركيز على الاطّلاع على الرصيد الجيني الضخم لهذا الموقع، مهملة المخطوطات العتيقة لضيق الوقت، ولقد سمحت لي هذه الزيارة بالاطّلاع على ميكروفيلم لمخطوط للكاتب الفرنسي الكبير: غيستاف فلوبير (Gustave Flaubert)، الذي يعدّ من أهمّ الكتاب المولين

اهتمامهم الكبير ورعايتهم لحفظ مخطوطاتهم، ولفن دراسة جينيّة البناء الفنّي، هذا الأخير الذي أوصى بكلّ مخطوطاته وأثاثة ومقتنياته الفنيّة لزوجته ووريثته (Mme Franklin- Grout- Flaubert) :

يحمل هذا المخطوط اسم :

«Nalus, épisode du Maha - Baharta» ورمز : (R70656).

إنّ الاطّلاع على مثل هذه الوثائق الجينيّة يسمح للباحث بالتعرّف على الطريقة الخاصّة بكاتب كفلوبير في تكوين نصّه، كما أنّ الباحث الجيني سيدرس طريقة فلوبير في التهميش وفي الخربشة وفي المراجعة وفي البتر، إلخ

كما أمكنني ولو على عجل وكباحثة مبتدئة في هذا الحقل أن أسجّل هذا الانطباع عن مخطوط فلوبير :

إنّ فلوبير يكتب على الجانب الأيمن من الصفحة تاركا على اليسار هامشا كبيرا للتنقيح والمراجعة، خربشاته قليلة وسطوره موصولة ومنتظمة، ويستند إلى الإضافات على الهامش مؤشرا على موقعها من النصّ بخطوط مسهّمة، وقد صادفت بترا واحدا لفقرة كاملة، ربّما تكون هذه طريقته الخاصّة، أو طريقته في هذا العمل بالذات، ويمكن أيضا ألا يكون هذا المخطوط إلا من بين المسوّدات النهائيّة للعمل.

وتبقى طبعا هذه الملاحظات مجرّد انطباعات أوليّة يعوزها الكثير من التمحيص والدقّة والدراسة المقارنة بينها وبين المسوّدات الأخرى لنفس العمل إن توفّرت أو إلى الرجوع للدفاتر الجينيّة لأعمال أخرى لفلوبير التي ستسمح حتما بحلّ كثير من شفرات هذا المخطوط.

ويحيلني الكلام عن الدراسة الفعليّة للمخطوط أو المسوّدة إلى محاولة التقديم للمنهجيّة العلميّة التي تستند إليها الدراسة الجينيّة في التعامل ومادّتها الأوليّة سواء تمثّلت في مسوّدات أو أوتوجرفات (المخطوطات الموقّعة من قبل الكاتب)، إلخ.

2. عن مناهج النقد الجيني ...

1.2. الضرورة المنهجيّة ...

يعوز وثائق المخطوطات أكثر من أي مادّة أدبيّة أخرى تفكيرٌ منهجي يتناسب والعمل التحليلي والتأويلي الذي يمارس عليها، ذلك أنّ مهمّة الباحث الجيني عادة ما تشبّه بمهمّة الأركيويلوجي الذي يكون عليه أن يرمّم قطعة فخّار مكسور أو يعيد بناء طلل مدينة مردومة تحت التراب (إعادة بناء افتراضي) كذلك تماما يسعى الباحث الجيني إلى ترميم قطع المسوّدات التي يتحصّل عليها وتتعقّد مهمّته أكثر كلّما تعقّد شكل وجنس نصّه المعالج، فمهمّة التعامل مع قصيدة شعر غير مهمّة التعامل مع رواية، ومهمّة التعامل مع رواية غير مهمّة التعامل مع رائعة كرائعة بروست.

مع ذلك فإنّه علينا أن نؤكّد دوما على أنّ التحليل الجيني ليس بالتحليل المعياري : فكما أنّه يهتم بـ "الأدب الرفيع" لا يغفل عن المؤلّفات المتواضعة... حتّى وإن كان عليه أن يسند لكلّ نصّ تقنيات معالجة خاصّة تقاربه من حيث هو عمل أصيل؛ له خلفيّاته وأدواته وطرق خلقه الخاصّة والأصيلة.

إنّ مثل هذه الإشكالات هي التي تتطلّب من الباحث الجيني يقظة منهجيّة تعينه على تجاوزها واستيعابها.

ويمكننا أن نختصر المنهج الجيني في مرحلتين أساسيّتين :

2.2. التأريخ الجيني (La chronologie génétique)

تمرّ عمليّة تأليف نصّ ما بعدّة مراحل يمكن أن نميّز منها: مرحلة التوثيق (la documentation)، مرحلة وضع الخطّة، مرحلة المسوّدات والمحاولات المختلفة والمشاهد، مرحلة المخطّط النهائي، مرحلة النسخة التجريبيّة للطبعة الأولى (épreuves d'imprimerie) المصحّحة أو غير المصحّحة من طرف المؤلّف.

ومن المعروف جدّا أنّه نادرًا ما تأتي هذه المراحل الخمس في هذا النظام والتراتبيّة فقد لا تتقدّم مرحلة التوثيق وتأتي متزامنة ومرحلة كتابة المحاولات..

وعادة ما يعيد الكاتب وضع ترتيب خطّته (هذا إن وضعها أصلا) تبعا لسيرورة كتابته وفي بعض الأحايين يتخلّى عن الخطّة الأولى نهائيًا أو يتناقض معها.

ويحصل أن يكتب كاتب مقطعًا في مسوّدة عمل ما نجده قد استغلّه في عمل آخر ... وهكذا تصير مهمّة المؤرّخ عصيّة نوعًا ما بالنظر إلى كونه أيضًا نادرًا ما يحصل على المجموع الكامل للملفّات الجينيّة للنصّ، إذ تبقى بعض العناصر مفقودة أو محتفظاً بها بشكل سرّي من طرف مصنّف ما ... ويحصل في بعض الأحيان أن نخسر بعض حلقات عمليّة إبداع النصّ نتيجة لتدمير المؤلّف نفسه لغير قليل من محاولاته ومسوّداته الأولى ...

يبقى أنّ لكلّ باحث جيني طريقة خاصّة في ترميم الشذرات الجينيّة التي تقع بين يديه في حالة من الفوضى واللاتجانس.

يمكنه مثلا أن يتتبّع عمليّة الخلق عن طريق تمييز وتصنيف الحبر المستعمل للكتابة والشطب والتهميش ... بحيث يمكنه أن يتعرّف على طبقات الكتابة المتتابعة ويحاول في أثناء ذلك إعادة تشكيل سيرورة العمل الإبداعي.

3.2. التمحيص (Déchiffrement)

يحدث عادة أن يجد الباحث الجيني نفسه في مواجهة كمّ من المخطوطات صعبة أو عصيّة القراءة تماما، فقد يضيف المؤلّف تعاليق بحروف صغيرة في الهامش، وفي بعض الأحيان يضع لنفسه نسق قراءة وترميز لا يعرفه غيره...

وعادة أيضا ما يتخّذ المؤلّف تقنية كتابة يصعب إعادة تركيبها أو تفهّم موقع هذه القطعة أو تلك الإشارة من عمليّة التحوّل النصّي.

هذه الإشكالات استدعت إنشاء مراكز للدراسات الجينيّة كـ (L'ITEM) التي توصّلت بفضل تطوّر التقنيّات البصريّة إلى تحليل الخطوط المختلفة وعملت على توظيف الكمبيوتر في تخزين السمات الخطّيّة لكاتب معيّن قصد تحليلها فيما بعد.

الغريب في هذا الباب أنّ التزامن الحاصل في ظهور هذا النقد والتكنولوجيّات الحديثة قد قدّم الكثير لهذا الفنّ غير أنّه يبقى ينطوي على تناقض جوهري، فهل من المصادف أن يبرز بحث يشتغل على أوتوجرافات الكتّاب ومسوّداتهم، مع انتشار أول معالجات آليّة للنصوص (الكتابة الالكترونيّة)، غير أنهاّ الثقافة تعشق الأشكال التي تعلن موتها !!!

كلّ شيء مترابط هنا وغير شاذ؛ فهذه الحواسب التي ما انفكت تثور وتنقلب على علاقتنا والكتابة اليدويّة وعلى عاداتنا الحميمية والمخطوط،

تعدّ هي بذاتها الوسيلة التي تبقى المقاربة الجينيّة دونها غير قابلة للتطبيق. والواقع أنّه ليست هذه بالمفارقة؛ وإنّما هذا من واقع الأمور، فتقنيّا لن تمكّننا أي طبعة ورقيّة أن ننشر آلاف المسوّدات والوثائق التحضيريّة التي تحتويها أرشيفات الأدب.

كذلك لا يعقل أن تنشر هذه المسوّدات التي لا تتبّع كما الكتب منطقا مقطعيّا رزينا، مرقّم الصفحات، متصدَّرا بفهرس، إذ على العكس تماما لا يمكن فهم هذه المخطوطات إلا بإعادة نشر معقّد وحركي لها، يمكّن الصفحة من احتلال عدّة مواقع للفهم، بحسب التحوّلات غير المتوقّعة للتكوين، في سياق يضارع كثيرا ما تسمح به هذه الوسائل التكنولوجية الحديثة من بنوك ومراصد للمعطيات، وروابط (hyperliens) وناشرين عبر وسائل الإعلام الجديدة كالنت مثلا.

إنّ إعادة كتابة مسوّدة عمل ما يستدعي توفّر منهج متكامل قادر على فكّ طلاسم خطّ الكاتب وتحليل خربشاته، اختصاراته، تهميشاته... تردّداته بطريقة تعيننا على قراءة دقيقة ومتفحّصة لمراحل تكوّن هذا العمل ومن ثمّ الانتقال بالدراسة إلى مطمح آخر، كلّ هذا يستوجب تظافر الكثير من الوسائل والتقنيّات وبالتّالي التجهيزات الحديثة التي تيسّر من هذه المهمّة العصيّة والمعقّدة.

4.2. تأويل الوثائق (L'interpretation des documents)

إنّ ضرورة التأسيس المنهجي لا تتعلّق فقط بتعقّد مادة البحث الجيني وإنّما أيضا بطموح هذا النقد إلى تجاوز مطلب إعادة البناء والتشكيل وبالتوصّل إلى استخلاص تأويل يقصد إلى إجلاء النظام الشعري أو السردي أو النفسي للعمل في أثناء خلقه.

فتماما كما أنّ دور الأركيولوجي لا يتوقّف لدى ترميم الفخّارة المكسورة وإنّما يتجاوز ذلك إلى استخلاص معرفة عن الحضارة التي أنتجتها، كذلك فإنّ الجيني لن يتوقّف عمله ودوره في حدود تلك المادّة الحسيّة (مجموع المسوّدات والنقاط...) الملموسة وإنّما سيكون تعامله الأساس مع مادة فكريّة ثقافيّة سمّاها جون بيلمان نوال (Jean Bellemin Noel) ماقبل النصّ : (L'avant texte).

5.2. ما قبل النصّ (L'avant texte)

يمثّل "ماقبل النصّ" مادّة نظريّة، تتمثّل في مجموع المخطوطات التي يعاد تشكيلها تبعا لمنطق داخلي يستند إلى سمات منتقاة : نفسيّة، لسانيّة، ظاهراتيّة، موضوعاتيّة، سرديّة، إلخ.

لا يستطيع الباحث إعادة تشكيل الملفوظات الأساسيّة لعمليّة الخلق إلاّ إذا استند وتبنّى طريقة قراءة خاصّة وعادة ما يستدعي نصّ ما هذه المقاربة أو تلك (أو ربّما أكثر من مقاربة) وهذا ما يعين الناقد على اختيار المنهج المناسب.

وفي أثناء تفحّص الباحث لملفّاته الجينيّة سيختار العنصر أو العناصر التي تبدو استراتيجيّة في عمليّة تطوّر ونموّ جنين النّص، ومن خلال هذا الاختيار سيستدعي تلك التعليمة أو النظريّة التي تعينه على استيعابه وتأويله، اختياره هذا لن يكون اعتباطيّا أبدًا إذ سيعمل على معاينة العناصر الحسّاسة و المؤثّرة على العمليّة الإبداعية في أثناء اجتيازه لمرحلة التأريخ والقراءة ومن هذه المعاينة سيقرّر أي وجهة أو وجهات سيتبنّى.

ولنأخذ مثالا بسيطًا عن هذا، نصّ يشتغل في أثناء تكوينه على تبديل جنس الشخصيّة (من شخصيّة : امرأة إلى شخصيّة : رجل) ونصّ يشتغل على تبديل ضمير الحكي من "هو" الى "أنا" (رواية مكتوبة بصيغة الغائب

تتحوّل إلى رواية مكتوبة بصيغة المتكلّم)، أكيد أنّ مقاربة النصّين ستختلف والمنهج المعتمد في إعادة بناء تكوينهما سيتباين تبعًا للإستراتيجية المتحكّمة في هذا البناء الجيني.

يبقى أن نشير إلى أنّ "ماقبل النصّ" كما اختار الباحث أن يبنيه سيشمل رقابة قبليّة (contrôle à postériori) على تأويلات العمل النهائي - التي صدرت أو ستصدر- حيث يمكن أن تثبت أو تفنّد فرضيّات القراءة التي وضعت قبلا فمثلا نحن لا يمكننا قراءة بروست اليوم بالطريقة التي قرأناه بها ذات عهد، حيث يرغمننا اليوم واقع ونشر مسوّداته على اعتبار مرحلة التكوين الأولى لعمله شرطًا أساسيا لقراءة وتأويل العمل في صيغته النهائيّة.

•مقترحات وآفاق للبحث ...

إنّ اطّلاعي على إمكانات هذا العلم الحديث والفرع النقدي المعاصر "الجينيّة النصيّة"، ومدى الاهتمام الواسع للمؤسّسات البحثيّة في الغرب بالسهر على تطويره، والاستفادة القصوى من نتاجه، يجعلني أقترح بعث مخابر أو فرق بحث متخصّصة تعنى بتطوير مبحث الجينيّة النصيّة بالوطن العربي؛ من حيث المنحى النظري لهذا العلم، أو التطبيقي بدعوة الكتّاب العرب بالشّروع في الإسهام في تطوير هذا المبحث الذي يبقى مجهولا عندنا، ببعث فكرة اقتناء/ شراء أو التبرّع بمخطوطات -وجلّ الدفاتر الجينيّة المتوافرة- كبار الأدباء العرب، ومن ثمّ أرشفتها وحفظها بأقسام خاصّة بالمكتبات الوطنيّة، تجهّز بالمعدّات التقنيّة اللازمة والكفيلة بحفظ هذا الإرث القومي، وذلك بالتنسيق دوما وفرق البحث، هذا المشروع يجب أن يرعى مباشرة من الدّول العربيّة في إطار مجهودات وزارات الثقافة بما يعرف بحفظ التراث المادي واللاّمادي وبالتنسيق ووزارات التعليم العالي

والبحث العلمي لمدّ المشروع بالعلميّة والتقنيّة اللازمة، لضمان نجاحه، خاصّة وأننا في عصر بدأ الكتّاب فيه يتجهون إلى هجر عادات الكتابة الحميمة إلى الكتابة الالكترونيّة، التي لا تُبقي أثرًا لسيرورة بناء النّص !

نحن الآن أمام كنوز أدبيّة وتعليميّة عربيّة على قيد الانهيار والضياع إن لم نستدرك هذا التأخّر.

ثمّ إنّ هناك مدخل تعليمي في المسألة؛ إذ أنّ هناك فرع تعليمي كامل انشقّ من علم "جينيّة النصوص"، ألا وهو تعليم وتعلّم اللّغة من خلال مسوّدات كبار الكتّاب وتعديلاتهم وخربشاتهم حتّى، مما يدخل خاصّة في فرع الأسلوبيّة، فلم نترك ونخلّي كنوزنا الأدبيّة في أيادي العبث والعدم !!!

وسيرتبط أيضا هذا المشروع مع عهد دمقرطة الأدب العربي ونهاية عهد الرقيب -السياسي على الأقلّ- وسيفتح لنا هذا الفن باب اكتشاف كيف يراقب الكاتب العربي نفسه، وكيف يسلّط سلطة الحذف على أفكاره الخاصّة والأصيلة، وكيف كتمت ذات سلطة سياسيّة كثيرا من الأصوات والآراء وبالتّالي محت وخربشت كثيرا من السطور والفقرات.

كما لايفوتنا أن نذكّر أنّ هناك ثلاثة مناح أساسيّة لهذا العمل :

1- منحى أدبي تراثي محض؛ نعتمد في إنجازه نظريّا وتطبيقيّا وتقنيّا على نظريّة النقد الجيني.

2- منحى تعليمي تعلُّمي؛ يسعى لاستغلال فكرة النقد الجيني وإدماجها في عمليّة التعليم والتعلّم، من مبدأ أنّ أسلوب القول والكلام والكتابة هو في النهاية أمر يشتغل عليه وليس بالأمر الخارق الذي كانت المؤلّفات المطبوعة والنهائيّة توحي به، لتفضح الوثائق الجينيّة خرافة الإلهام والعبقريّة وتحيلها إلى عمليّة اشتغال وعناء فكري وفنيّ جاد، إذ يمكن

آن يطعّم الكتاب المدرسي بنسخ من بعض المخطوطات والمسوّدات الأدبيّة تطلع التلميذ على جانب كـان إلى عهد قريب مجهولا وغرائبيّا في ذهـن أغلبنا.

3- منحى تأريخي؛ يسعى إلى التأريخ لفترة من الكتابة العربيّة؛ من حيث فكرة المراقبة الذاتيّة والخارجيّة للعمل الإبداعي.

كما علينا أن ننتبه لإشكال مهمّ ومبدئي في المسألة وهو مدى جرأة الكاتب العربي على تقديم مخطوطاته لمختبر النقد الجيني، لابد من طرح هذه الفكرة على محكّ التجربة.

الإحالات

1- يُقابل مصطلح (la critique génétique) عربيّا أيضا بالنقد التكويني، وقد تبنّينا في هذا المقال ترجمة الدكتور واسيني الأعرج لهذا المصطلح الفرنسي والتي نراها تقترب من مقصد المصطلح الأجنبي؛ من حيث أنّ الجينيّة بحث يستقصي جنين النص في كلّ مراحل تطوّراته وصيرورته إلى نصّ/ مخلوق مكتمل .

2- Oswald Ducrot, Jean Marie Schaffer, Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage. Ed. Seuil. Paris, 1995, p. 209 .

3- ينظر :

- Pierre-Marc de BIASI, la GÉNÉTIQUE DES TEXTES, ARMAND COLIN : 2005, paris, pp. 6-15.

4- كنت قد استفدت من تربّص علمي في ديسمبر من سنة 2007 بمدينة بوزونسون الفرنسيّة، عرّجت خلاله للعاصمة باريس في زيارة موجزة استفدت خلالها من زيارتي لبعض مواقعها العلميّة والثقافيّة.

5- عن تمهيد فهرس المخطوطات العربيّة لقسم المخطوطات الشرقيّة بمكتبة ريشوليو.

قائمة ببليوغرافيّة بأهمّ المصادر والمراجع المتعلّقة بالدرس الجيني والتي سجّلتها خلال تردّدي على مكتبتي :

A- Bibliotheque Nationale de France : Fronçois Mitterand :

- Hay Louis, la littérature des écrivains : question de critique génétique, paris : 2002.

Haut - de - Jardin.

Sale G.801. 950 07 Hay.

REZ-de- Jardin.

801.95007 HAY.

- Carnet d'écrivains 1, Hugo. Flaubert, Proust, Valéry, Gide, Dubouchet. Perc

Haut - de - Jardin, salle H.

-Hay Louis, De lettre au livre : 1989, sémiotique des manuscrits littéraires.

Haut - de - Jardin. Sale G, 801-95002. HAY.

-Pierre- Marc de Biasi, la génétique des textes, 801.95007 BIAS.

-Sauvé, Madeleine ? Qu'est qu'un livre ? : de la page blanche à l'achevé d'imprimer, Publication (Montréal) : FICHES 2006

Haut - de - Jardin, E - Histoire du livre et Bibliothéconomie. 070.504. sauv a.

- Cahiers de textologie, exercices de critique génétique, textes réunis et présentés par Michel Malicet/ Paris - Minard. 1986.

أهمّ مقال به :

«Censure et auto censure dans l'Agneau et dans le Sagouin de Mauriac». Michel Malicet.

- Leçons d'écriture ce que disent les manuscrits, Hommage à Louis Hay. textes Réunis par Almuth Grésilon et Michael lwerner, lettres modernes, Minard, 1985.

- Pierre-Marc de BIASI, la Génétique des textes, Armand Ccolin : 2005, Paris.

- La naissance du texte, ensemble réuni par Louis Hay, José corti. 1989.

- Censure, autocensure et art d'écrire, de l'Antiquité à nos jours. Editions complexe, sous la direction de Jaques Domenech, 2005.

- L'écriture et ses doubles, Genèse et variation textuelle. Textes et manuscrits, collection par Louis Hay. Edition du CNRS. 1991.

B- La bibliothèque universitaire de la Faculté des lettres Besançon :

- Enseigner par les corrections des grands écrivains/ Antoine Alalat ; préf : n° 839875.
- La réécriture du texte littéraire/ Groupe de recherches en linguistique et sémiotique, numéro coordonné par Thomas Aron ; Besonçon. Per. 2168.3 2164-3.
- Sur la génétique textuelle/ études réunis par D.G.Bevan, P.M.Welherill. Auteur (s) : Bevan, David.G. Welherill. Peter Michael. (E.D).
- Elément de critique génétique : Lire les manuscrits modernes/ Almuth Grésillan. n° 433868. 433864.
- Génétique & traduction: actes du colloque de Arles./ textes réunis et présentés pour le centre d'études valéryennes de l'université de Montpellier III et le collège International des traductions littéraires des Arles ; par Serge Boujes. Paris : L'Harmattan, Cote 654372. 653634.
- L'écriture et ses doubles : genèse et variation textuelle. 1991. Ed. du centre national de la recherche scientifique. Ferrer, Daniel(éd), Lebreve, Jean - Louis (éd.). cote ; 437744. 429519.